

الى هنا انتهى الدور الثاني من أدوار حياته وابتدأ الدور الثالث
الذي سيكون بمون الله موضوع مقالنا التالي
أبر الفصح الفضى

السلطة والحريّة

معناها - نشأتها - أثرها في التربية

أشرت في المقال السابق ، الى أن الرومان عرفوا الحرية لأنفسهم
وضنوا بها على غيرهم من بني الانسان ، وليس أدل على ذلك من تلك
الحروب السياسية ، التي اشتعلت نيرانها بين حزبين كبيرين من سكان
رومة ، أولهما حزب الوطنيين ، الذين أسسوها ، ونشثوا بين ربوعها ،
وثانيهما حزب النزلاء ، الذين أجلوا عن بلادهم ، وانخذلوا رومة وطناً
لهم . وقد قام النزلاء يدافعون عن أنفسهم ويطلبون حقوقهم لما استبد
بهم الوطنيون ووضعوا القوانين التي حرمتهم كثيراً من المراكز العالية
ومن نصيبهم في الأراضي العامة وجعلتهم سلعة في أيدي أرباب الأموال
الذين أكلوا الربا أضعافاً مضاعفة وسلبوا المدين من النزلاء حريته
وحياته وأذاقوه العذاب ألواناً واسترقوا أولاده لا لذنوب جنوه سوى
إعسار أبيهم وما زالت تلك الحرب قائمة على قدم وساق حتى نال النزلاء
حقوقهم كاملة ولا شك أن القائمين بالأمر في مثل هذا العصر - عصر
النضال السياسي واستبداد طائفه بأخرى - لا يوجهون العناية الى

العامة ولا يهتمون بأمور الشعب ولذا لا تجدد التربية فيه نظاماً عاماً
تتناوله بالبحث

ولما أخضع الرومان بلاد الاغريق وأخذوا عنهم علومهم وآدابهم
وحضارتهم أسسوا مدارس أولية ثم مدارس « للبلاغة » كان التلميذ
يخضع فيها لأستاذه خضوع العبد لسيده على أن التعليم كان في أيدي
تفر من الاغريق أو العبيد الذين لا يعينهم إلا ما قد يصيبون من
الأجر عليه وإنما لا نستطيع القول بأن التعليم أخذ صبغة قومية إلا في
زمن العاهل الروماني أنتونينس^١ بيس^٢ الذي أجرى الرواتب على
المدرسين في أنحاء العاهلية على أن الرومان قد اكتفوا بتقليد أسانذتهم
اليونان في أفكارهم ومعتقداتهم فلم ينضج أمامهم مجال الاجتماع ولم
يكن لهم من أصالة رأى في غير التشريع ووضع الأنظمة

ولئن كانت الفوضى الفكرية سبباً في تفويض دعائم الحضارة
اليونانية وزوال دولة الاغريق لقد كان الاستعباد من أعظم العوامل
التي أتت على الرومان فأذهبت ملكهم وشتمت شملهم

جاءت المسيحية فلم توفق للقضاء على نظام الاستعباد ولكنها
رفعت من شأن الافراد في الجملة وعلمتهم أن الغاية من الحرية الانسانية
هي الخضوع لارادة الله سبحانه ثم قام رجال الدين يدرسون فلسفة
اليونان قصد التوفيق بينها وبين الكتاب المقدس حتى يجعلوا للدين
سنداً من العقل فحصلت نهضة فكرية لم تدم طويلاً فقد أثار برابرة

الشمال على بلاد الرومان وأوربة الجنوبية واعتنقوا الدين المسيحي ومهدوا الطريق للكنيسة وألقوا في يدها مقاليد الأمور لما كان لها من المنزلة الدينية في نفوسهم فسلبت حرية الأفراد وأوجبت عليهم الطاعة العمياء .

كان الناس في العصور الوسطى عبيد الطائفتين الأشراف ورؤساء الدين وذلك لأن الأشراف زعموا أن الله آتاهم بسطة في الرزق ومن عليهم بالثروة الطائلة ليستدلوا بها رقاب العباد ولتكون لهم السيطرة على من دونهم وأما رجال الدين فادعوا أن الله اختصهم من بين عباده ليكونوا أمناء على أسراره وصفوته من خلقه والقائمين بحجته في بلاده وأنه ألهمهم من العلم ما شاء وكشف لهم عن ملكوت الأرض والسماء فظهرت لهم الحقائق وتجلت الآيات ولم ينب عن علمهم شيء فقاموا يعلمون الناس ويطلبون منهم الخضوع والطاعة العمياء لدين لم يفهمه العامة ولم يقف على أسراره الخاصة وحالوا بينهم وبين الكتاب المقدس لأمر في نفوسهم وحرموا عليهم النظر في الكائنات وضيقوا عليهم الخناق وقيدوهم بأنظمة سياسية واقتصادية ودينية ولم يسمحوا لأحد بحرية الفكر ولا بفهم ما يجري من أمور العالم وتمصبوا للانجيل وحاولوا تفسير كل شيء على مقتضاه وقالوا إن كل شيء لا يتفق معه عبث وباطل وأنه جمع فأوعى ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وكثرت تقاليد الكنيسة رغبة في التعمية على العامة ونتج عن ذلك أن خضع الناس لسلطانهم مدة من الزمن وقبلوا ما وسوسوا إليهم به

طائعين أو مكرهين ففاض معين الاختراع ووقفت الحركة الفكرية
وجفت ينابيع العلوم ولم يبق مما تركه السلف إلا قشور بالية وفقد
الاستقلال الشخصي وساد الجهل والاعتقاد في الخرافات

عمت المصيبة وسرت المدوى وشملت المدارس على اختلاف
أنواعها وحظر المدرسون وعم من رجال الدين غالباً على تلاميذهم حرية
الفكر وصبوا في رؤوسهم قليلاً من الحقائق الجافة التي لا علاقة بينها
وبين الحياة وعنوا بالسفسطة والجدل وشقشقة اللسان والمناضلة عن
الدين واقتصرت دراستهم على فنون كانت تسمى « الفنون السبعة
الحرية » وجعلوا للمنطق المكان الأول في منهج الدراسة لما له من
عظيم الشأن في المناظرة وكان عم المناظر الظفر على عدوه بأي طريق
تهيأ له فذهب الاخلاص وانقرجت مسافة الخلف بين القول والعمل
واشبهه الحق بالباطل ولكن الأرض لا تخلو من قائم لله بحجة في عباده
« ولقد تمدوا أحداث الزمان وتصاريف الأقدار على مواهب قوم
ومزايام فنكف من صولتها ونغشى من رونقها وتضمف من أثرها
ولكن لا يزال تحت الرماد ذلك الوميض حتى اذا جاء عليه اليوم المقرر
له تأجج واشتعل حتى ليكاد سناه يذهب بالابصار »

حقاً « لقد تأجج ذلك الوميض وكاد سناه يذهب بالابصار »
فقد انتبه الناس من سباتهم العميق وخلعوا عن عاتقهم نير الاستعباد
الفكري ونهذوا سلطان الكنيسة وتمتعوا بالحرية الشخصية ودبت
روح الامل في نفوسهم وسرت الحياة الجديدة في روقهم فشعروا

بجمال العلم ووجهوا عنايتهم للبحث في المظاهر الطبيعية واشتغلوا بالسياسة وعنوا بآداب الاقدمين وولعوا بالفنون الجميلة على اختلافها وأخذ حب الاستنباط منهم مأخذه واتسعت دائرة أفكارهم وولدت حركة فكرية أدبية علمية لم يعهد مثلها في تاريخ بني الانسان وامتدت هذه الحركة في كل أنحاء أوربية وتعددت مظاهرها تبعاً لأمزجة الامم وميول الشعوب وسرت روحها الى المدارس فكان لها أحسن أثر فقد أنجبت كثيراً من رجال الادب وأهل العلم وأبطال السياسة وأرباب الافلام والمخترعين والمستكشفين والمصلحين وصناديد الوعي وبالجملة خطا العلم خطوة واسعة في سبيل العلم والمدنية لا عهد له بها ولا غرو اذا وجدنا المؤرخين يسمون هذه الحركة « حركة إحياء العلوم والصنائع » أو « عصر الحياة الجديدة »

استمر الحال على ذلك زمناً ولكن المدارس أبت أن تلبس لكل حالة لبوسها وأن تجرى مع التقدم وتسير رافعة لواء العلم فوقفت المدارس وتعصب المدرسون لمذهبهم ودخلهم الغرور وفقدت روح الحركة الفكرية ونضب معين الادب وانقطعت الصلة بين الحياة المدرسية والحياة الخارجية ولم يحتو منهج الدراسة إلا على بعض المواد الجافة وكان للاتينية المكان الأول ومع هذا كانت دراستها عقيمة تقريباً فلم تترك في نفوس التلاميذ خير أثر

ولما نشأت اللغات القومية وكثرت مواد العلوم واستنبطت القواطين الطبيعية والرياضية أخذت تراحم اللغة اللاتينية ونادى المصلحون

بوجوب إدخالها في مناهج التعليم وحلولها مكان لغة ميتة لا تجدي نفعا ولا تفيد فائدة ولكن رجال المدارس أبوا إلا أن يتعصبوا لها فاتحلوا الأعداء وتلمسوا الأسباب لبقاء هذه اللغة وساعدتهم سفسفتهم ومقدرتهم على الاحتجاج لمذهبهم بفلسفة أرسطو وغيره من علماء النفس اليونانيين الذين قالوا أن النفس مركبة من عدة قوى وأنما متى مرنا هذه القوى وساعدناها على النمو سهل استعمالها في أي مادة ورأوا أن خير وسيلة لتربية هذه القوى هي اللغة اللاتينية ولما كانت هذه المزية ليست مقتصرة على اللغة أخذ كل فريق يدعيها لمادة خاصة ينيل إليها وقامت الحرب على قدم وساق واحتدمت نار الجدل بين طائفتين « رجال الأدب » و « رجال العلم » ولا يزال أثرها حتى اليوم جليا في المدارس الأوربية

كانت دراسة اللاتينية جافة جامدة - ودراسة الكلمات الفردية بقطع النظر عن الجمل ورفيق العبارة وبديع الاستعارة ورائع الخيال وما ترمى إليه من جميل المعاني أو القواعد العلمية والقوانين الطبيعية ومن غير تطبيقها على أمور الحياة - وقلما تؤثر دراسة كهذه في النفوس البشرية . ولما كانت المادة غير مشوقة في ذاتها لجأ المدرسون إلى الشدة واستعملوا أنواع العقاب وطرق الارهاب وحرموا على التلاميذ الحركة وحرية الفكر وودوا لو كان في مقدرتهم أن يسلبوا قواهم العقلية فخدمت العقول ولم تأت المدارس بفائدتها المطلوبة بل كانت خطراً على الناشئين ووبالا على الفتیان لأنها حالت بينهم وبين النمو العقلي والجسمي ولاشك

أن النفوس البشرية الحية لا صبر لها على ذلك ومن ذا الذي يرضى بالأسر
ويحمل الاستعباد ولا سيما الاستعباد الفكرى

فيض الله « رسو » للمدارس وهذه حالها لا تحسب للطفل حساباً
ولا تقيم له وزناً ولا تراعى شيئاً من قوانين النمو ولا طرق النشوء
فخرمت عليه الحركة وأساءت فهم النظام وحتمت عليه أن يجلس كأنما
على رأسه الطير وأن يصنعى الى المعلم الساعة بعد الساعة واليوم بعد
اليوم فقتلت فكره وأضعفت جسمه ووضعت فى رقبته الأغلال التى
لا يستطيع حملها تلك كانت الحال ولا يزال أثرها مشاهداً فى بعض
المدارس الى اليوم

وستنكم فى « رسو » وآرائه فى المقال الآتى ومن الله نستمد العون

محمد على الممزوب

بالخديوية

عبد الملك بن مروان والشعر

٢

جودة نقده إياه

وعدنا فى المقال السالف أن نأتى ببعض ما أثر عن عبد الملك من
جودة نقد للشعر وجميل موازنة فى متشابهه ورجوع الى الحق متى
وضح فى غير طريقه والآن نسوق القول ذا كبرين شيئاً عن كل أمر
من هذه الامور الثلاثة .